المسرح الشعري (١)

الراجح أن المسرح ـ ولا أقول القصص ـ لم يعرف على صورة توشك أن تكون ذات طابع وقوام الا عند الاغريق في عهودهم الذهبية ؛ أمّا ما قيل عن وجود المسرح عند قدماء المصريين وعند أهل الصين وأهل الهند فيبدو أنه مفتقر للحجة الشافية ، وعند مؤرخي المسرح أن هذا الذي عرف من أمر المسرح عند تلك الأمم على افتراض صحته لا يعدو أن يكون إبرازاً لشعائر دينية في مشاهد مرتجلة عابرة .

على أن الثابت كما تعلمون أن المسرح منذ عرفه الإغريق كان مسرحاً شعرياً ، وأن الشعر كان هو وحده لغة المسرح ، وأن المسرح نشأ نشأة دينية غنائية ، فالتراجيديا ، وأظنكم أسميتموها (المأساة) استمدت حياتها في مهرجانات الربيع عند الإغريق ، وكانت تُقام لآلهة الخمر والنماء متسمة بطابع الوقار والقطوب ، ذلك لأنها كانت تمثل مظاهر الذبول والجفاف تصيب الكروم ؛ والكوميديا ، وأظنكم سميتموها (الملهاة) ولدت في مهرجانات الشتاء ، وهي مهرجانات مرحة فرحة صاخبة . ذلك لأنها تمثل مراحل نُضرة الكروم ورونقها ، وهي موشكة أن تؤتي ثمارها .

فهذان العاملان عامل الدين وعامل الفناء ـ وهما ملاك هذين النوعين من المسرحية ـ اقتضيا أن يكون الشعر لغتها دونَ النثر ، فالشعر عندهم لغة إلهيّة

---

(١) بحث للأستاذ عزيز أباظة ألقي في مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة في دورة سنة ١٩٦٠ ـ ١٩٦١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

تتلاءم مع شخوص المأساة بخاصة ، فقد كانوا على الأغلب الأعم آلهة أو أنصاف آلهة بالمعنى الحقيقيّ أو المجازيّ . هذا إلى أن الشعر كان وما يزال بنغمه واستوائه وجَرْسه أصلحَ شيء للّحن والتوقيع .

ولقد كانت حفاوةُ الإغريق بالمَسرح شعباً وحكاماً حفاوةً تقصر دونها كل حَفاوة ، فقد كانوا يحتشدون له ويرجئون في سبيل شهوده كل جسيم من عمل أو خطير من تجارة ، وكانوا يرفعون أصحاب المسرحيات من شعرائهم الى أعلى مقاوم المجد ، وهكذا فعلوا لاسكيلوس واستوكليس وبوربيدس وارستوفان وغيرهم ممن خلقوا هذا الأدب الرائع ومكّنوا له وخلفوه الانسانية تراثاً خالداً .

ثم دار الزمن دورَته ، وورث الزمان حضارةَ اليونان ، وورثوا كثيراً من شوامخ علمهم وفنهم وأدبهم فكانت المسرحية الرومانية صورةً للمسرحية اليونانية لغةً وتناولاً واتجاهاً ، وكان الشعر أدقّ ما استمسك به المؤلفون الرومان في اقتباسهم ذاك ، ولعل « سِنِكا » كان أعلى شعراء الرومان قدماً في تأليف المأساة وارسالها نابضةً بالحياة ، وهكذا جمع « سِنِكا » كآحاد قليلين عبر القرون بين أستاذيّة الشاعر وأستاذية الفيلسوف .

وبقيت الحال على سِكَنتها تلك حتى غزت روما المسيحية السمحة ، فانفصلت المسرحيات بتعاليمها وشعائرها ، وبقي الشعر أداتها لغة وتفكيراً وأداء ، وظلت المسرحية والشعر رفيقيْ سفر وإقامة ، حتى تنفس الصبح من عصر النهضة والبعث العلمي بأوروبا ، وهو العصر الذي استمسك بأهداب الأدب السلفي أو الكلاسيكي ، واستوحى شعراؤه مادةَ أدبهم من ذخائر الماضي العاتق ، على أنهم عُنوا عناية أربت على عناية أسلافهم القدامى ، بتعقب النفس الانسانية وغرائزها في أغوارها السحيقة ، بألوان من الدراسة والتحقيق ، ثم جلوها في مسرحيات جامعة رائعة لم يزدها مرور العصور إلا جِدّة وسُموقاً وجلالاً ، واستحدثت في عصر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

السلفيين هؤلاء فنون مسرحية أخرى ، فانفصل الرقص والغناء والموسيقى عن التمثيل ، وولدت المسرحية الغنائية والمسرحية ذات الغناء ، وخطرت قضايا الحب الى كل مسرحية ، فكانت قطب رحاها كما يقولون ، وقبل ذلك العهد لم يدخل الحب مسرحية قط . وقع كل ذلك ، ولكن الشعر بقي أداة هذه الفنون جميعا ، لا ينازعه منازع . وبقتضينا الانصاف أن نذكر من أصحاب هذه المدرسة بعض عظام رُوّادها ، أمثال Lope de Vega ومارلو وشكسبير وكورني وراسين وموليير وأضرابهم .

ثم جاء عهد الرومانسيين الابتداعيين في أواخر القرن الثامن عشر ، فأحدث هؤلاء أضخم انقلاب عرفه تاريخ الأدب في المسرحية ، قضوا على ما عبر عنه بالوحدات الثلاث في التأليف المسرحيّ وكانت مقدسة الى ذلك العهد ، وهي وَحدة الزمن ووحدة المكان ووحدة الموضوع أو العمل ، وقضوا على الشعر لغة في المسرحية . ثم جاء العهد الواقعيّ وسلّم به غير بعيد ، فاختفى الشعر على صورة حاسمة أو كاد ؛ على أن الشعر لم يعدم نصيراً عبقرياً أيامَ الرومانسيين الابتداعيين نافح عنه في يقين وقدرة ، هو هيجو العظيم ، ولم يعدَم الشعر لذلك مستمسكين به مدافعين عنه أيام الواقعيين من أمثال ادمون روستان في مطلع هذا القرن ، ثم كلودل وأليت وكرستوفر فراي وآخرين من المعاصرين .

هذه لمحة نسوقها على علاقة الشعر بالمسرحية منذ مولدها الى اليوم في الأدب الأعجميّ وهنا مكان لوقفة نلقي تحت هدأتها نظرة عجلى على أدبنا العربي ، أعرف هذا اللون من الأدب أم لم يعرفه .

لم تدلف المسرحية الى الأدب العربي إلا في أواخر القرن الماضي ، فلم يعرفها العرب لا في المشرق ولا في المغرب ، لم يعرفوها مؤلفين ولا ناقدين ، وكأنهم لم يأتهم نبأها قطُّ . فلم يذكروها الذكر العابر في حديث أو محاضرة أو أثر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولقد يكون هذا مفهوماً قبل عهد الترجمة عن اليونانية والسريانية في صدر الدولة العباسية ، ولكنه في حاجة لقدر من التعليل بعد ازدهار عهد الترجمة وانبساط ظله بفضل رُواده من أمثال مرجيس والرهاوي وحنين بن اسحق وابنه اسحق بن حنين ومتى بن يونس ويحيى بن عدي وغيرهم . ولقد أثار هذا الموضوع زميلنا الدكتور خلف الله في الأسبوع الماضي وتداوله بعض حضراتكم بتعقيبات واعية شافية أستأذنكم في الالمام بها على عجل محافظةً على ترابط السياق .

قيل إن العرب قصروا عنايتهم على علم اليونان وفلسفتهم وحكمهم ، لأن مظان هذه العلوم قد أحسن نقلها لهم وتوسيدها لديهم ، وعلى النقيض من ذلك مراجع الأدب ، وقيل إن كتاب أرسطو في الشعر - وهو مفتاح الدراسات الأدبية اليونانية غير منازع - قيل إن ناقليه الى العربية لم يفهموه على وجهه فترجموه مضطرب الفكرة متعثّر السياق ، غامض المذهب ، فظل مستغلقاً على أذهان العرب ، حتى على عباقرة مفكريهم من أمثال الكِنْدي والفارابي وابن سينا وابن رشد ، وقيل إن العرب تعففوا وعافوا أن يتعاطوا هذا اللون من الأدب - وأقصد الأدب المسرحي - بوازع من دينهم لأنه حفيل بالوثنيات ، قائم على تعدد الآلهة والاِلاهات ، ولأنه يدور كله حول أرباب نزلوا منازل البشر ، وبشر رفعوا الى مقام الأرباب مما يتعارض أشد المعارضة وأبعدها مع فلسفة الاسلام ورسالته ، ويكاد يتعارض في وقت ما مع وثنية العرب التي عَفَاها الاسلام ؛ وقيل إن العرب قد ماثلوا في موازينهم ، وفي تصورهم بين خلق الشخوص الروائية ، وبين خلق التماثيل مصنوعة أو منحوتة فنفروا بطبعهم من هذا الاثم ، وقيل بل قانون العرض والطلب ، هو الذي صرف العرب عن هذا اللون من الأدب .

وقيل بل ازدهار الأدب العربي وتألقه في عهد الترجمة إبان العصر العباسي ، هو الذي زهدهم في كل أدب غيره .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقيل بل هذه الأسباب مجتمعة كل منها أدّى الى النتيجة على قدر أثره .

وقيل وقيل مما يجري على هذا النسق باتفاق كبير ، واختلاف يسير ، وأعتقد ـ كما يعتقد كثيرون ـ أن العرب قد فهموا كتاب أرسطو عن الشعر فهماً خاطئاً أو ناقصاً في جملته فانه مما لا يمتنع عن التصور أن يكونوا قد ألموا بأشياء ذات شمول وعموم عن أدب المأساة والملهاة . أما صدوفهم عن هذا الأدب ، وإسقاطهم له فليس الوازع الديني ـ فيما أرجح متمشياً مع بعض حضراتكم ـ أقوى أسبابه ، فإن الاسلام ـ ولقد عرضتم لذلك ـ وهو الدين السمح ، دين العقل والفطرة وتكريم الروية قادر بمُثُله وإعجازه وسَعته أن يستوعب كل ثقافة من الثقافات وكل إشراقة من اشراقات الذهن الانساني أدباً كانت أو فناً أو علماً ، وقادر كذلك أن يصل فيها بقوانين الفكر إلى أصولها وفروعها ، ثم إنه بعدُ على تَبَيُّن فضلها أو كشف زيفها أهدى وأقدر ، وآية ذلك كما قلتم أنهم نقلوا عن أفلاطون وأرسطو وسقراط وغيرهم ، فلم يضيقوا صدراً بالوثنية التي تَرين على فلسفاتهم ؛ بل على النقيض قارعوا الحجة بالحجة ، وجاهدوا الرأي بالرأي في سماحة وتسامح .

فليس ببعيد إذن أن يكون العرب قد تَصَوَّنوا عن هذا اللون من الأدب لهذه الأسباب التي ذكرت ولأسباب أخرى منها أنهم لم يألفوا بطبائعهم ذلك التعقيد الذي ضرب على المسرحيات وأشاعه فيها ارتفاقها على أساطير وخرافات لم يستسغها مزاجهم ، ولم يتهيأ لها تكوينهم ؛ ومنها أن شعرهم في مجموعه كان شعراً ملاكه الذاتية ـ إن صح التعبير ـ فالعربي في غَمرات الصراع الناشب بينه وبين الطبيعة ، والتوجس الدائب المتوثب بينه وبين من حوله نَشأ على شيء كثير من الأثرة النفسية ، فهو لا يعنى إلا بنفسه ، ولا يعبر إلا عنها ، ولا يأبه بالصلات التي تجمع بينه وبين المجتمع لأنه درج على الانقباض لهذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المجتمع ، والحذر منه والضيق به ، فكان شعره من أجل ذلك شعراً ذاتياً أشاعت فيه هذه الذاتية روحاً غنائية عرف بها ، وعرفت به . ومن هذه الأسباب أيضاً ما قيل من أن العرب لم تُفِض الطبيعة على بلادهم ما أفاضته على بلاد غيرهم من الأمم من محاليها ذات الرواء ومناظرها ذات الرونق ، فلم يتسع خيالهم ، ولم تنبسط مآخذه ، ولم يمد هذا الخيال مددٌ من أساطير عاقلة أو غير عاقلة تداولتها الأجيال حتى تلبست بعقولهم وعواطفهم وأضحت جزءاً من وعيهم . فعمل هذان النوعان من الحرمان على وأد الأدب المسرحيّ ، وعلى نقض ما ينبغي له من استعداد واعداد ؛ ومنها أن العرب أمة فاخرت الأمم بنفوذ مصائرها وسرعة بدائهها ، وسلامة ارتجالها ، وبخليقتها هذه لم ترض عن صور كثيرة من الإعداد والمراجعة والتهذيب فلقد نقل الجاحظ عن الأصمعي أنه عاب مَنحى زهير في حولياته ، وأنكر على الحطيئة خطته في مراجعاته ، فقال عنه أنه عبد لشعره ، وتلك حال لا يستقيم معها خلق قصة كاملة ثم إحكام التنسيق بين فصل وفصل ، ثم الحفاوة بتتبع الحوادث فيها وهي تنتقل انتقالا صاعداً بين قضيتها وعقدها وقرارها كما يقولون .

ولعلّ من أرجح هذه الأسباب وأدناها للصواب ما قيل من أن فطرة العرب موضوع فيها التركيز . فبلاغتهم بعد الاسلام ، وهي من وحي القرآن ، قائمة على فنون من الحذف والايجاز والاشارة والاستغناء باللمحة الدالة والاجتزاء بالفقرة المبينة ، وتلك طبيعة تتناقض تناقضاً بيّناً مع تأليف قصة أو مسرحية ، فلقد تأدّى لنا فيما قرأناه أن الفنّان العربي قد برع في تلحين الأصوات وأدائها ووضع موسيقاها ، ولكنه وقف عند هذا الحدّ لم يتخطه فلم يصنع المتتابعة « السيمفونية » ولم يحاولها وهكذا فعل زميله الشاعر : لم يكتب ملحمة ولم يحبك أطراف رواية ، ولنا أن نسأل : ما الذي يضطر الشاعر العربيّ إلى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذا العنت كله ، وهو يعلم أنه بموهبة التركيز التي رزقها على أوسع الأمداء وأثراها مستطيع في بيت واحد من الشعر أو بيتين أن يبعث في سامعيه قبائل من الأحاسيس والانفعالات لا يرجو هو أغزر منها ولا أوقع ، ومستطيع كذلك في بيت أو بيتين أن يكشف لهم أفانين من طوايا النفس البشرية ونزعاتها ، وخلجاتها ، وسجاياها ، تدعم له قضيته ، وتوفي به الى ما يتطلع اليه من غاية ، فإذا أودع شكسبير مثلاً في مسرحية (عطيل) مئات من اللمسات التي تصور جنون الغيرة حتى لقد اندفع الزوج الغيور المحب فقتل زوجه ثم أكله الندم غير بعيد حين علم أنه قتل في غير جرم ، فان « ديك الجن » يطيف ببعض هذه المعاني أو يكاد حين تعرض لمثل هذه التجربة قبله بمئات من السنين إذ يقول راضياً عما يقول من غير فضول أو فصول :

رَوَّيتُ من دمها الثرى ولطالما روى الهوى شفتيَّ من شفتيها
حكمتُ سيفي في مَجال خناقها ومدامعي تجري على خديها

واذا نشط راسين فجمع في « أتالي » أطراف الحقد الأسود وعرض لفلسفة الانتقام والمقت بالرغم من الود والرياء والصفاء المستحدث . فان الشاعر العربيّ يجد مقنعاً من مسرحيته التي يرسلها في بيت واحد فيقول :

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حَزازات النفوس كما هيا

واذا هاج « كورني » في مسرحية « السيد » ذاك الصراعُ الجامح بين ما يقتضيه الحب وما يقتضيه الشرف ، وقال على لسان بطله إن الشرف والرجولة فوق الحب فان الشاعر العربيّ في موقف ليس بعيدَ الصلة بذلك الموقف يقول :

وإني لو تخالفني شمالي خلافك ـ ما وصلت بها يميني
إذن لقطعتها ولقلت بيني كذلك أجتوي من يجتويني

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

واذا تحدث «موليير» ساخراً متألقاً في مسرحية كاملة عن بخل بخيله وتقتيره واستقصى ظواهر تلك النفس المريضة وبواطنها ، فان ابن الرومي يرسل في بيت واحد صورة ناطقة حية لبخيله لا بغض من كمال الأداء فيها أنها ليست ذات فصول ومشاهد إذ يقول :

ولو يستطيع لتقتيره تنفّسَ من منخرٍ واحدِ

وان كتب الكتاب والشعراء المحدثون في هذا العهد ـ أملاً في جائزة نوبل ـ قصصاً ومسرحيات تؤثرها هذه الجائزة عن الديموقراطية وحقّ الشعوب على حكامها ، وعن الاشتراكية والتعاون والدعوة للسلام ، فان شعراء العرب أرسلوا مسرحياتهم على طريقتهم المركّزة فقالوا :

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها ، وهم أجراؤها

وقالوا :

الخالطين غنيهم بفقيرهم حتى يصير فقيرهم كالكافي

وقالوا :

ساعد بأرض إن كنتَ فيها ولا تقلْ إنني غريبُ

وقالوا :

دعاني يشب الحرب بيني وبينه فقلت له لا بل هلم الى السلمِ

ومن أمثال هذه المسرحيات الخاطفة طرائف تقفون عليها في الشعر العربي في مختلف مراحله ، على أنني أرجو أن أشير بهذه الشواهد إلى حقيقة واحدة تتصل بخليقة التركيز التي عرفها العرب في أنفسهم ، هي أن قدرتهم على الإتيان بما قلّ ودلّ ، وان كان ساذجاً وفي غير إعداد ، أغنتهم عن محاولة ما دلّ وجلّ وهالَ بمُعاناة ما لا صبرَ لهم عليه ولا هوًى لهم فيه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أيها السادة : مرت القرون يأخذ بعضها برقاب بعض دون أن يُعنى العرب ومن جاءوا بعدهم من المتحدثين باللسان العربيّ بأدبِ المسرح ، حتى وقع في منتصف القرن الماضي ـ إذا صفحنا عن محاولات الشاعر ابن دانيال في العهد المملوكي ـ أن شقّ المسرحُ سبيلَه الى سورية ولبنان ومصر ، وشقت المسرحية طريقها متخاذلةً الى أدب هذه الشعوب ، وبدأ هذا الأدب الجديد في صورة مترجمات ، ثم أخذ سمته بعد ذلك للتأليف المقتبَس ثم إلى التأليف الخالص ، وعالج الشاعر اللغويّ الشيخ خليل اليازجي المسرحية الشعريّة فكتب مسرحية أسماها « المروءة والوفاء » عن النعمان بن المنذر ويوم بؤسه الذي تحدثنا عنه كتبُ الأدب ، وعالج المسرحية الشعرية كذلك الشاعر اللغوي عبدُ الله البستاني فكتب ثلاثاً لم تعرف منها إلا مسرحية واحدة اسمها مقتل هيرودس لولديه ، على أن هذا الذي كتبه هذان الشاعران الجليلان قد يصدق عليه أنه شعر ، أمّا أنه مسرحيات فذلك ما لا نستطيع أن نقولَ به ؛ على أن لهما ـ على كل حال ـ فضلَ السابقين الأوّلين ؛ ثم أراد الله لهذا اللون القيّم من الأدب أن يخلق من العربية وأن يزدهر فهدَى اليه شوقي شاعرنا الخالد فعالجه ، واستطاع قبلَ أن يختاره الله لجواره ببضع سنوات أن يَزُفّ للشرق العربي مسرحياته النفائس ، ولعل أجمعهن لأوجه الجمال الأدبي والفني مجنون ليلى ، ومصرع كليوباطرة . ولست هنا بسبيل تناول مسرحية الشعر عند شوقي بالدراسة والتحليل والنقد ، فانه لن يرضيني وأنا من أكثر الناس إعجاباً به وإكباراً له واستمداداً منه ، لن يرضيني أن أجعل دراسةَ مسرحه قسماً من بحث أو باباً في فصل ؛ ولن يواتيني الوقت حتى اذا أنا حاولت ، ولكن ذلك لن يقف بي أن أشهد بين أيديكم أن شوقي صاحب التمثيل كاد أن يرتفع الى عُليا المشارف التي تفرّعها شوقي قيّم شعر الغناء ، وأشهد بين أيديكم إلى جانب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ذلك أن شوقي في مآسيه المتعددة وفي ملهاته الواحدة استطاع أن يدرس على طريقته جوانب من النفس الإنسانية ، وأن يعرض لمشاعرها بالتحليل الموفق والعرض الموثق ، واستطاع أن يتناول الأحاسيس والنزعات القومية ، وأن يشيد بها في نماذج قوامها الصدق وملاكها الجمال ، واستطاع كذلك في أغلب مسرحياته أن يفرغها في القوالب الحية من الفن المسرحيّ ، وأن يتحرّر الى حدّ كبير من سلطان طاقته الغنائية الفارعة ، حتى يتسلسل الحوار غير فاضل على مقتضياته ، وغير مخل بالمعنى الذي يتدافع فيه وغير مسيء لأسلوب العرض وغير معيق لتتابع وصلاته وتدفق حركاته .

أيها السادة الأجلاء :

هذا الذي سقته لكم هو في مجموعه عرضٌ لبعض وجوه المسرحية الشعرية وسردٌ لبعض مراحلها وأطوارها . ولقد كان حريًّا بي أن أحميكم هذا العنت لو لم أُرد عن عمد أن أطرح أمامكم قضيتها الجسيمة التي يتنازعها اليوم أهلُ الرأي بين مظاهرين ومخالفين ، تلك هي قضيةُ شعر المسرح في هذا الزمن الذي نعيشه ، وبين ضواحي هذه الحياة التي نحياها .

قيل : إن مسرحية الشعر لا ينبغي لها أن تكون ذات مكان في هذا العصر . فالشعر ليس لغة الناس ، فهي إذن خروج عن طبائع الأشياء . وهي بهذا الخروج قد جعلت إلى انقطاع الصلة بينها وبين الفنّ أنها قاصرة عن خلق تأثيرها في جمهور نظارتها الذين لن يحسوا على وجه الإطلاق أنهم يعيشون أحداثها وحوادثها .

وبهذا القول المبسط أثيرت مسألتان ضخمتان : أما إحداهما فقديمة قِدَم الأدب والشعر والفلسفة تلك هي مسألة المحاكاة ، وأما إحداهما الأخرى فحديثة إذا قيست بسابقتها ، خرجت الى هذا العالم ، يفرض عليها كل عصر مواجهها ومخارجها ، تلك هي مسألة الواقعية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

على أن أصحاب نظرية الواقعية هذه قد اقتسروا طريقهم في أعقاب القرن الماضي إلى نظرية المحاكاة فتأولوها على الوجه الذي أرادوه وحملوها ما أجهدوا أنفسهم في إنشائه ثم في إحيائه من أصول وتفاريع ، وهكذا نشبت المعركة في الأدب الأجنبي غربيه وشرقيه ، وما زالت ثائرة مستعرة ، ولكن هذه المعركة أتخذت هنا في بلادنا صورتين مختلفتين ، صورة تجلت فيها معالم المفاضلة بين نثر المسرح وشعر المسرح ، وهي أكرم الصورتين وأرجحها في موازين التقدير ، وولي هذه الآراء وباسطها للناس هو أستاذنا الدكتور طه حسين . وصورة أخرى أبرزت دعوة الواقعيين بما فيها من ضئولة وضحولة وتناقض وتهافت .

أما الصورة الأولى فقد أخرجت للناس منذ سنوات حين تقدم مؤلف مسرحية شعرية للدكتور طه حسين ليشرفه بتقديمها للناس فكتب مقدمة رائعة عالج فيها الشعر المسرحي منذ نشأته ، وخرج منها بنتيجة انتهى اليها ، هي أن الشعر لم يعد يصلح للمسرح بحال ، وأن المسرحية إن لم تعالج بالنثر ـ وفيه حرية وطلاقة وإسماح ـ فهي بعيدة عما ألف الناس ، بعيدة عن فهم الناس ، وهي إلى جانب ذلك عقيم ، فلن تحدث الأثر الذي يخلقه عادةً كل عمل فني أو أدبي ، وكان مما أشار اليه الدكتور طه أن الشعر بأوزانه وقيوده وقوافيه نوع من الأسر ، وأن القدامى اصطنعوه في مسرحياتهم لأن النثر لم يكن قد بلغ أشده بعدُ ، ثم قال في مختتم بحثه ذاك : إنه من أجل ذلك كله لم يفتن تمثيليات شوقي ، ولم ينشط لتمثيليات خليفته فلان . وحين طولع الناسُ بهذا الرأي كثر منهم المناصرون والمعارضون ، فكتب الدكتور طه مقالاً آخر نحى فيه المنحى نفسه في قدر من التوسع سمح لحجته أن تتراص وأن تتواكب ؛ ولست أريد أن أحاج أستاذي الكبير ، فلقد حمل عني نصف مؤنة هذا العبء شاعر مسرحي فحل هو : ت . س . اليوت شاعر اللغة الانكليزية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في هذا القرن وحمل النصف الثاني أديب أمريكي جليل وشاعر كبير الخطر هو ارشيبالد ماكليش .

يقول ، اليوت ـ وسأجمل كلامه في فقر كفقر البرقيات [١] :

ـ الشعر والنثر في المسرحية كلاهما وسيلة لغاية ، وما يزال الشعر أقدر على التعبير عن عواطف الإنسان ونزعاته . ويستوي الوسيلتان في التعبير عن العقل .

ـ عندما يرتفع الموقف المسرحي إلى مشارفه من الناحية الإنسانية ، فالشعر هو اللغة الوحيدة التي ترقى الى ذلك المستوى .

ـ ليس الفرق بين الشعر والنثر في المسرحية ضخماً كما يظن الناس فالنثر الفني الجزل قد يمكن أن يعتبر غريباً كالشعر سواء بسواء .

ـ الشعر حين تكتب به المسرحية يتعين أن يكون له ما يسوغه من الناحية الفنيه أو المسرحية وإلا كان النثر أصلح وأجدى ، ويظهر أن هذه الفقرة الأخيرة لم يرض عنها الشاعر الأديب ارشيبالد ماكليش فكتب يقول :

ـ الشعر استخدم المسرح والمسرح استخدم الشعر [٢] مدى مئات ومئات من السنين قبل أن يوكل الأمر للنثر فأدى الشعر رسالته تلك على أصلح وجه وما زال مستطيعاً أن يؤديها .

ـ أن الانصراف عن مسرحية الشعر في القرنين الأخيرين كان لعوامل ذاتية في كتّاب المسرح مشيراً لقصورهم لا في الوسيلة والأداة ..

ـ ان هذا الجيل يرتد عن رضى ورغبة لمسرحيات الشعر التي كتبت في العصور الماضية ليرى فيها نفسه . فلماذا يدفع شعراء العصر عن أداء هذه الرسالة .

ـ أن المسرحية أثر فني ، فهي كسائر آثار الفن عالم بذاتها ، عالم يكون

---

(١) كتاب On Poetry and Poets

(٢) مجلة اتلانتك فبراير سنة ١٩٥٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فيه الحديث بالشعر طبيعياً ، كما تكون الألوان في الصورة والشعر على لسان هاملت أوقع من النثر وأنفذ ، لا لأن بلاط الدنيمارك كان يدور الحديث فيه شعراً ؛ ولكن لأن المسرحية تمثل القلب الانساني في صميمه ولا يتحسس طريقه الى هذا القلب إلا أسمى ما استحدثه الإنسان من أدوات التعبير ، وهو الشعر .

— ان اساءة المعالجة وضعف الشعر ، والإخفاق في الملاءمة بين الشعر والموضوع هي وحدها التي تشعر النظارة بغرابة الحوار الذي يدور شعراً ؛ ويظاهر هذين الأديبين أديب كبير يحبه الدكتور طه ويعجب به هو فرانسوا مورياك . إذ يقول إن النثر لم يستطع أن يبلغ الحقيقة المعقدة المتشابكة كما فعل الشعر ويقول — وفي كلامه هذا حق باهر — إن المسرح وهو مجلى الأدب ومجاله ان يتغلب على الموت الذي تسوقه اليه الخيالة الناطقة إلا إذا عاد الى ميزته الخاصة وهي الشعر [1] عندئذ لا تتكافأ المنافسة فتذهب جهود الخيالة الناطقة ضياعاً في القضاء على فيه برغم ما تملكه من قوة وأداة بلغت بها الصناعة أعلى مراتبها .

ولكن هناك صورة أخرى لمعركة لغة المسرح أو على الأصح لمعركة المسرح بنواحيه ومذاهبه كافة هي تلك التي أثار غبارها الواقعيون ، وأسلفت لها الاشارة منذ قليل ، وهم لا يزالون يثيرونها في كل فن وكل أدب .

يقول هؤلاء الواقعيون في صرامة لا تقبل التصالح ان المسرحية يجب أن تكون من الحياة وصورة صادقة لما يجري في الدنيا وارتكزوا على نظرية المحاكاة التي ابتدعها أرسطو فاذا رجعنا في إيجاز شديد للمحاكاة عند أرسطو ألفيناها تقوم على أساسين أولها أن تكون المحاكاة معينة على فهم الطبيعة ، وثانيهما أن تكمل المحاكاة ما لم تكمله الطبيعة ، وحين تناول أرسطو الشعر خاصة قال : ان المحاكاة في المأساة — خيرة كانت أو شريرة — ينبغي لها أن تنصرف الى تمثيل أفعال الناس والى ما يمكن أن يفعله الناس ، والشاعر ليس أسيراً للواقع ،

(١) مجلة الكتاب عدد مارس سنة ١٩٥٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن هنا فضل الشاعر في نظره على المؤرخ . وجدير بالذكر والتقدير التنبيه إلى أن أرسطو لم يتصور قط أن تكتب المأساة بغير لغة الشعر ، ولم يَدُر بخلده قطُّ أن الشعر في المأساة يتجافى عن الارتباط بالواقع ، بل على النقيض فهو يرى أنه ارتباط بالواقع في أقوى أواصره .

ذلك موجز مضغوط لنظرية المحاكاة عند أرسطو التي كانت وما زالت مشغلة للناس ثم تداولها بعده المفكرون فلم يتعرضوا لجوهرها ، وإن كانوا قد اجتهدوا اجتهادهم في تأويلها وتفسيرها متأثرين بالمعاني الاجتماعية والتيارات الفكرية التي تسود كل عصر ، فعند ديدرو Diderot وأمثاله أن الفنان لا يحاكي الطبيعة وإنما يجعلها وان إدراك الفنان لجمال الطبيعة هو معيار عبقريته وان محاكاة الطبيعة عنده محدودة بنضجه الذهني الذي يقوم على الملاحظة وعنده وعند غيره أيضاً أن المحاكاة لا تقع على التشابه الظاهر ولكنها قبل كل شيء محاكاة لحياة الانسان وأخلاقه وغرائزه وعواطفه . فهي محاكاة نفسية . ولكن قادة الواقعيين في القرن التاسع عشر جاهدوا هذه الآراء في عنف وحقد وعلى رأسهم نوابغ عصرهم من أمثال بومارشيه وزولا وبلزاك ثم إبسن وتشيكوف وغيرهم واعتماد هؤلاء أيضاً على نظرية أرسطو في المحاكاة بعد أن تناولها شيشيرون أستاذهم ففهمها على غير وجهها وفسرها بأنها التطابق الملتزمت لا أكثر ولا أقل . واستطاع هؤلاء بمقدرتهم وكفايتهم أن يبلغوا من تنقص مسرحية الشعر وتهجينها ما أرادوا كما استطاعوا أن يمهدوا السبيل لمسرحياتهم الثرية الرائعة .

على أن الواقعيين في هذه الأيام قد أضفوا على الواقعية سخفاً وهواناً لا قرار لها أجملها في عرض زكي رائع الكاتب الكبير وولتر كير في كتابه (عيوب التأليف المسرحي) فيقول إن المسرح الواقعي ضرب تافه من التصوير الشمسي بطيء الحركة قائم على احترام الايقاع الذي تسير عليه الحياة من تطويل ممل تتفتت فيه فرص ابراز المضمون أو دراسته الشخصية . فالصورة التي يرسمها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شكسبير في جملة واحدة يبرزها المسرح الواقعي في مشهد كامل ؛ ويقول وهذا رأي واضح الوثاقة ان المحاكاة التي يحتج بها الواقعيون لن تتحقق إلا اذا وجد الاختلاف بين الأصل والصورة التي تلدها المحاكاة ، فالمحاكاة في عناصرها الأولى هي التشابه + الاختلاف . واجتماع الشرطين ضرورة لا معدى عنها للتمييز بين المحاكاة Imitation والمماثلة Identity . ويقول ان غباء المسرح الواقعي ناجم من أنه جسم المشابهة الى أبعد الحدود وهون المخالفة الى أبعد الحدود .

ويقول أستاذنا العقاد في مقدمة نيرة كتبها لمسرحية شعرية اسمها « أوراق الخريف » : ان الفن كما عهده الناس في جميع الأزمنة انما هو تعبير وتصوير ، ولو كان نقلاً ومحاكاة لما كانت لنا من حاجة اليه لأن أبصارنا وأسماعنا تغنينا عنه وترينا ما يراه الفنان وما يسمعه بغير ما حاجة الى تأليف . على أن هؤلاء الواقعيين قد قذفت في وجوههم أسئلة عدة بهتوا لها وغشيتهم منها حيرة مترامية الآفاق ، فوقفوا متخاذلين لم يحيروا جواباً .

قيل لهم : لم حرمتم الشعر لغة للمسرحية وسكتم عن أشياء عديدة هي أبلغ إيذاء للواقعية وأفدح أثراً .

قيل لهم : هل كلام الموتى على المسرح من واقع الحياة ؟ وهل نطق الفرنجة باللغة العربية في مسرحية عربية من واقع الحياة ؟ وهل أحاديث حشد من الشخوص من أمم مختلفة تؤدى بلغة واحدة هي من واقع الحياة .

وهل التكلم بذكاء وروية طوال المسرحية كما يقول « موم » هو من واقع الحياة ؟

وهل الحوادث المرتبة بالمسرحيات بمقدماتها وعقدها وتسلسلها وقرارها هي من واقع الحياة ؟

وهل حوار الناس غناء في الاوبرا والاوبريت ـ وقد قبلها الواقعيون ـ من واقع الحياة ؟ الى غير ذلك من مثل هذا الذي سقناه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولقد نخلص من هذا كله الى أن حجج الواقعية تدمغ بها مسرحية الشعر هي حجج داحضة متهاوية ، وأن المسرحية الشعرية كالمسرحية النثرية ضرورة من ضرورات الأدب والمسرح والفن على سواء بل لقد ادعى أن مسرحية الشعر ألزمُ اليوم للناس . ألزمُ في هذا العالم الذي يرزح تحت أحمال الفزع والتوجس والشك والتقلب وفقدان الثقة والإيمان ويكاد تتمزق أوصاله ويتداعى كيانه تحت هذا الغموض الذي يرين عليه ، وبين شعب المفاسد التي تتعاوره من غفوة المثل ويقظة المادية .

وأحب أن أستعين في مختتم هذا العرض بكلمة جامعة للشاعر ت . س . اليوت تتجلى فيها خلاصة من كل هذا الذي أرهقتكم به غير رفيق بكم ولا راحم لكم .

يقول : إن المتنفَّس المثالي للشعر هو المسرح ، ففي شعر المسرح نصيب موفور لمستمعيه كافة : لبسطائهم القصة ، ولمن هم أكثر منهم ثقافة تلك التعبيرات الشريفة الجزلة التي يتميز بها الشعر ، ولأولئك الذين رزقوا الحساسية الموسيقية القالب والوزن والإيقاع ، ولأولئك الذين صفت نفوسهم وتألقت عقولهم كل هذه العوامل مجتمعة وهي عوامل ، ومن شأنها أن ترفع الى أسمى المشارف معنويات الناس وأخلاق الناس وجمال الدنيا .

- أستأذنكم في استطراد واحد لا بد منه لهذا الذي نقوله . لا بد منه لأن الغاية التي نستهدفها منه جليلة الخطر جسيمة الأثر .

إن هذه الواقعية التي عرضنا لأطراف منها هنا وهناك وذكرنا آراء بعض دعاتها من رجال الفكر والأدب في بلاد غير بلادنا ، إن هذه الواقعية قد تسلَّل لها في بلادنا وفي بلاد الشرق العربي نفر ربطوا أنفسهم بها بالحق أو بالباطل وصَدُّوا عن مختلف وجوهها إلا وجهاً واحداً احتشدوا له وتضافروا عليه هو محاربة اللغة العربية ومحاولة الغض منها والتجني عليها والإلواء بها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قالوا بادئ ذي بدء إن المسرحية لا ينبغي أن تكتب شعراً ، ثم ثنوا فقالوا والشعر هو أيضاً ينبغي له أن يتخفف من القافية .

ثم تلبثوا قليلاً فتداعوا فاجترؤوا فقالوا ليتخفف الشعر كذلك من الوزن .

ثم تقدموا بعد ذلك خطوة أخرى ولعلهم من التقدميين فقالوا : وما التراكيب الفصيحة ؟ وما الأسلوب الشريف ؟ الكلام بغيرهما أبين والفهم أدنى وأيسر .

ثم أبرزوا مسفرين مسرفين مصرين مجاهرين ، فدعا فريق منهم إلى أخلاط من التعابير المتهافتة الفثة من الشعر المنثور والنثر المشعور يقيمونه باسم الحقد والعجز على أنقاض الشعر الأصيل ، ودعا فريق آخر الى العامية يكتب بها الناس قصصهم ومسرحياتهم لتقوم باسم التقدمية أو الشعوبية على أنقاض تلك الذخيرة الربانية من النثر العربي المحكم وسافوها دعوة أدبية فنية وهي دعوة أثيمة خبيثة تكمن وراءها مساندات ، ظاهرات نفوس سقيمة ، عطاش لهدم كل ما هو مأثور من تراث العصور ، وكل فيم من ذخائر الحضارات التي هذبها الزمن وأغلاها العتق .

من الحق لكم ومن الحق عليكم أيها الخالدون أن تنفروا لدفع هذه الغاشية التي داهمتنا بأخرة ، هذه الغاشية التي تأتمر بلغة كتاب الله ، وتأتمر بها كذلك سياجاً لهذه العروبة التي نعتز بها ونستمسك . هذه العروبة التي لا يجمعها في نسق كريم فريد جامع هو أقوى وأكفى وأبلغ وأبرع وأكرم وأمتن وأرصن من هذه اللغة الإلهية الثرية الفخمة الجامعة الواعية المبينة المؤدية المفصلة .

من الحق لكم ومن الحق عليكم أيها الخالدون أن تجهروا بأصواتكم وهي في هذا المقام من أصوات النبوة مطالبين كل دولة عربية أن تطهر صحفها وإذاعتها ومسارحها الجادة من خبثين قاتلين : خبث مساندة العامية وإشاعتها باسم التخفيف والتيسير ، وخبث مجاهرة الأدب بعدوان سافر يهوّن من أقداس شعره ونثره باسم التجديد والتطوير . فان فعلتم — وإنكم لفاعلون — فنحن الأعلون والله معنا .

عزيز أباظة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net